مؤشرات النمو السكاني خلال العصر الحجري الحديث في العراق

أ.م.د. حسين يوسف النجم *

تأريخ التقديم: ٢/٥/٢٠١٠ تأريخ القبول: ٩/٦/٢٠١٠

يعد النمو السكاني أحد أهم مظاهر العصر الحجري الحديث في العراق ، فقد قادت الثورة الزراعية التي حدثت في هذا العصر في حدود الألف الثامن ق.م إلى جملة من التطورات وفق أدلة المكتشفات ومنها زيادة السكان، كما زادت من سرعة انتقال الإنسان وسعة مواصلاته(١)، وإنَّ دراسة حصيلة ذلك النمو يؤشر أنَّه كان نتيجة جهد مادي وفكري طويلين انعكس أثره في حصول تغير اجتماعي كان أساسه تفاعل الإنسان بشكل واضح مع البيئة وزيادة جنسه(٢). وقد شهد العراق كغيره من المناطق التي حدثت فيها تلك التغييرات تقدماً شاملاً في كل مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية(٣) ممَّا كان لتلك المظاهر أثرها الواضح في إحداث زيادة النمو السكاني تباعاً ممَّا سنورده في هذا البحث، فقد شكل إنتاج الغذاء الذي يمثل أحد العناصر الأساسية في ظهور الحضارة المادية في تلك الحقبة في العراق ومنطقة المشرق الأدنى القديم كما أثبتت الأدلة الأولية المتمثلة بإنتاج الغذاء(٤)، لقد كان التحول من حياة الصيد والجمع الى إنتاج الغذاء بعد أن تعلم الإنسان الزراعة بشكل تدريجي وقيامه بالعمليات التجريبية لها ومعرفته لأنواع النباتات والمحاصيل الزراعية وقيمها الغذائية واختيار الأنفع منها، كذلك تعلمه تدجين الحيوانات بعد إن

---

* قسم الحضارة/ كلية الآثار/ جامعة الموصل.

(١) كون كارلتون، قصة الإنسان، منذ ظهور الإنسان الأول إلى الحضارة البدائية وما بعدها، ترجمة: محمد توفيق حسين – عبد المطلب الأمين، بغداد، ١٩٦٥، ص ١٥٥.

(2) Cohn, M. M. , "The Food Crisis in the Prehisotry", In: Antiquity, vol. LII, No. 204, 1978, p. 77.

(٣) عيسى، سلطان، عصور ما قبل التاريخ، دمشق، ١٩٩٥-١٩٩٦، ص ٢١٨.

(4) Braidwood, R. J. , "From Cave to Village in Iraq", In: : Jstor, vol. 28, No. 2, 1954, pp. 41–43.

كان يصطادها ويقتلها لكي يتغذى على لحومها والذي جاء نتيجة ملاحظاته المستمرة بأنواع الحيوانات وما تقدمه من منفعة غذائية واقتصادية واختياره لها وفق ذلك، كذلك استقراره في قرى زراعية ثابتة في الألف الثامن قبل الميلاد وقد مثلت تلك الجوانب أحد أهم معالم النمو السكاني والتي أسهمت بوضوح في تغيير طرق تفاعل الإنسان مع بيئته ومع أقرانه من البشر، إذ مثلت تلك المرحلة أساساً لجوهر العالم الحديث بعد مروره بعدة مراحل متتالية في سلسلة حلقات التطور نحو المدنية(١).

لقد أخذ النمو السكاني شكله المتزايد وتحددت بداياته منذ أن بدأ الإنسان ومنها في العراق القديم بالانتشار في مساحات وأنطقة جغرافية أوسع وأكثر من المراحل السابقة على الرغم من الظروف المناخية المعاكسة آنذاك وتقلباتها المثيرة والمدهشة، وكانت أول محاولات الإنسان مركزة وبشكل أساس في مسألة إنتاج وتأمين القوت نتيجة تعرض مصادره للضغط والاستنزاف المستمرين ومن ثم خطر انحساره وقلته جراء التقلبات البيئية وبالأخص في العراق الذي يُعتقد حسب رأي بعض الباحثين المختصين بأنَّ البيئة فيه كانت أقل قساوة من الأجزاء الأخرى من العالم وان الظروف المحلية لم تكن تختلف كثيراً عن الظروف الحالية في الوقت الحاضر ولاسيما بعد الألف الثامن ق. م(٢)، إذ كان للتغييرات الحاصلة في الظروف المناخية التي شهدها العراق كغيره من بلدان منطقة الشرق الأدنى القديم أثرها الواضح على البيئة ومعطياتها في ضمان الغذاء من خلال تفاعل السكان مع تلك المتغيرات التي كان لها الدور الأكبر في إحداث ذلك التغيير الذي قاد الى التطورات المشار اليها سابقاً ومن ثم أسهمت بدورها في تزايد النمو السكاني نتيجة تأمين الغذاء، ويمثل تطور الزراعة وتدجين الحيوانات والفخار وابتكار الآلات والأدوات وتطور العمارة وظهور مفاهيم التبادل نتيجة فائض الانتاج وتبلور المفاهيم الاجتماعية والفكرية والتقنية أحد أهم مؤشرات النمو السكاني في العصر الحجري الحديث في العراق ومعيار وجوده وذلك وفق الأدلة العالمية المستندة على نتائج التنقيبات الأثرية في القرى الزراعية الأولى التي استوطنتها المجاميع السكانية، وسنحاول القاء الضوء والتركيز على مؤشرات النمو السكاني فيها.

أبرز مؤشرات النمو السكاني في القرى الزراعية:

(1) Simmons, A. H. , The Neolithic Revolution in the Near East, University of Arizona, 2007, (Internet).

(2) Charvat, P. , Mesopotamia Before History, London, 2002, p. 4.

أولاً. تطور الزراعة:

يعد تطور الزراعة أحد أهم مؤشرات النمو السكاني خلال العصر الحجري الحديث ومعيار تطور حياة المجتمعات القروية في ذلك العصر، فقد تحكم السكان في تأمين كميات غذائهم ولم يتجولوا بحثاً عن غذاء يسد حاجتهم كما كانوا سابقاً مما قاد إلى تحقيق الاستقرار وتأسيس القرى والمستوطنات، كما إن تحديد نوعية الغذاء وتنظيمه بدقة من خلال زراعة وإنتاج محاصيل ذات قيمة غذائية عالية بسعرات حرارية عالية ونسبة كبيرة من البروتينات جعلت السكان أكثر صحة بعد أن كانوا يتناولون الغذاء بشكل عشوائي غير منظم ومن مصادر شتى تختلف قيمها الغذائية والصحية، اذ قد يؤدي تناول الإنسان لبعض الأغذية الى حدوث أضرار صحية وربما الى الوفاة نتيجة عدم نظافتها أو احتوائها على مواد سامة أو فاسدة، ومن جانب آخر فقد تم إنتاج فائض من المحاصيل الزراعية في عدد من المناطق مما يعني بأنَّه لم يكن من الضروري أن يقضي كل واحد من السكان ويصرف كل وقته للحصول على الغذاء[١]، وقد أحدثت الزراعة المنتظمة والثابتة انتاجية فريدة كان لها أهميتها في تحسين مستويات المعيشة الدائمة وزيادة النسل وقادت بعد ذلك الى ازدياد النمو السكاني[٢]، وبوجه عام فانَّ انتشار الزراعة من موطنها الأصلي في منطقة الشرق الأدنى والذي يُعدّ العراق أحد أهم مناطقه الرئيسة قد عكس حقيقة انتشار سكانها وتزايد نموهم بالاستناد إلى مصادر الغذاء الوفيرة التي اعتمدوا عليها[٣].

إنَّ الزراعة المنتظمة أفرزت عدة مؤشرات كانت لها أهمية أيضاً على النمو السكاني خلال العصر الحجري الحديث في العراق من عدة جوانب تتمثل بالنقاط الآتية:

١. **ملائمة الزراعة للعامل البيئي والمناخي:** إنَّ معظم القرى الزراعية التي شهدت تطورات العصر الحديث بكل فتراته PPNC ,PPNB ,PPNA[٤] تقع ضمن

(1) The Neolithic Revolution and the Mesopotamia Civilizations, The University of Kansas, 2003 (Internet).

(2) Zeder, M. A. , New Perspectives on Agricultural Origins in the Ancient Near East, Department of Anthropology National Museum of Natural History– Smithsonian Institution (Internet).

(3) Star, C. G. , A History of the Ancient World, Oxford, 1965, p. 21.

(4) PPNA: ٦٠٠ .٧–٨٥٠٠

المنطقة المتموجة والتي تتمتع بمناخ السهوب المعتدل وبمعدل سقوط مطري يبلغ (٥٠) سم أو ما بين (٢٠٠-٤٠٠) ملم والذي يسمح بقيام زراعة شتوية ناجحة وخاصة الحبوب المتمثلة بالقمح والشعير[١]. ويمثل هذا العامل أحد أهم عوامل النمو الذي مكن السكان في العديد من تلك القرى من الحصول على مصادرهم الغذائية بشكل ثابت ووفير.

٢. **التطور العقلي في اختيار أصناف محددة والرغبة في الحصول عليها:**

تطور الانسان العقلي في اختيار أصناف المحاصيل الزراعية ذات القيمة الغذائية الكبيرة ورغبته في الحصول عليها حتى مع عدم امكانية توافرها في منطقته بسبب ملائمة الظروف المناخية والبيئية لها أحد سمات تطور النمو السكاني ويرصد حالة الوعي الذي وصل اليه السكان في معرفتهم لأنواع المحاصيل الزراعية وقيمتها الغذائية والصحية، وادراكهم لذلك وهنا نؤشر إلى أنموذجين من المحاصيل الزراعية عينات أو أمثلة على ذلك وهما: (الحبوب والمحاصيل البقولية)، فكما هو معروف أنَّ لهذين المحصولين قيمة غذائية كبيرة فالحبوب تعد الغذاء الرئيس للانسان وتحتوي على عناصر غذائية مهمة تتمثل بالكاربوهيدرات[٢]، ومادة الجلوتين التي تدخل في عملية صنع الخبز[٣]، أَمَّا المحاصيل البقولية فتُعدُّ هي الأخرى مصدراً مهماً من مصادر البروتين للانسان والحيوان الى جانب غذائها بالكالسيوم والفسفور وبعض الأملاح المعدنية الأخرى والفيتامينات[٤]. وقد تم رصد بقايا تلك المحاصيل وبشكل متفحم (مكربن) في العديد من القرى الزراعية رغم تباين الظروف البيئية والمناخية المتعلقة بزراعتها ونحوهما في تلك القرى إلاَّ أنَّها عكست الرغبة الحقيقية للسكان في اختيارها مؤشراً على النمو ومن تلك القرى المغزلية التي تقع غرب مدينة الموصل بالقرب من بلدة تلعفر حيث عثر فيها على حنطة من نوع

---

٧. PPNB: ٦٠٠٠-٦٠٠

٦. PPNC: ٩٠٠ .٥-٢٠٠

(١) أطلس العراق والوطن العربي والعالم الشامل، بغداد، ٢٠١٠، ص١٥.

(٢) كول، سونيا، ثورة العصر الحجري الحديث، ترجمة: تقي الدباغ- نادية سعدي الدبوني، بغداد، ١٩٨٩، ص٩٠.

(٣) الشيخ، عادل عبد الله، بدء الزراعة، وأولى القرى في العراق، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٥، ص١٢٥.

(٤) الجنابي، محسن علي أحمد- علي، يونس عبد القادر، المدخل الى إنتاج المحاصيل الحقلية موصل، ١٩٩٦، ص ص١٤٧-١٤٨.

(Emmer)[١]، وقرية أم الدباغية الواقعة جنوب غرب مدينة الموصل الى الغرب من مدينة الحضر الأثرية التي عثر فيها هي الأخرى على أنواع من الحنطة تمثلت بـ (Emmer) و(Einkorn) و(Six–row bread) وكذلك العثور على شعير من النوع العادي (Naked and Hulled Barly) كما عثر فيها على بقايا محدودة من العدس والحمص[٢]، وفي موقع قرمزدرة الواقع غرب مدينة الموصل بالقرب من بلدة تلعفر تم العثور على بقايا بذور العدس وأنواع أُخرى من البقوليات[٣].

٣.**تزايد الأيدي العاملة واستمرار توسع السكن:** يمثل وجود بذور المحاصيل الزراعية المشار إليها أعلاه في القرى الزراعية انعكاساً لحقيقتين بوجود نمو سكاني فيها تتمثل الحقيقة الأولى بوجود أعداد متزايدة من الأيدي العاملة من السكان ساهمت ببذر وزراعة ومن ثم حصاد تلك المحاصيل وخصوصاً في بعض المناطق التي لا تتمتع بأمطار كافية للزراعة الديمية، وهو ما يشير إلى قيام زراعة تجريبية أولى من خلال الارواء الذي يحتاج الى جهود وأيدٍ عاملة كثيرة، وفي الوقت نفسه إن وجود بذور البقوليات في منطقة ليس فيها ري وبالأخص في المناطق الواقعة جنوب المنطقة المتموجة والتي تُعدّ في الوقت الحاضر منطقة شبه صحراوية والتي نعني بها منطقة أم الدباغية في إطار هذا البحث يشير الى انَّ تلك المحاصيل الزراعية التي استعملت واعتمدت في إنباتها على الري قد جلبت من مناطق أخرى من خلال عمليات المقايضة وهو دليل يؤثر على وجود نمو سكاني في ظل بيئة مهددة بالفقر والجفاف وتتمتع بتأمين غذائي مستقر كما يؤثر على وجود أفراد من تلك المنطقة كانت لهم معرفة ودراية وربَّما صلات مع أقرانهم في المناطق التي جلبوا فيها تلك المحاصيل الزراعية المشار إليها لمعرفتهم بقيمتها الغذائية، كما يؤشر استمرار السكن وتوسعه لمدد طويلة ومتعاقبة تتراوح في تلك القرية التي اخترناها في بحثنا هذا أنموذجاً أو عينة ما بين (٠. ٠٧٠ + ١٢٠) ق. م من عمر المنطقة إذ بقي السكان في تلك القرية يعيشون ويقومون بممارسة نشاطاتهم الحياتية المتمثلة بشكل رئيس بالنشاطات الاقتصادية التي وردت الإشارة إليها في تقارير التنقيبات الأثرية التي جرت في

(1) Mathews, The Early Prehistory of Mesopotamia 500. 000 to 4. 500 BC, Brepols, 2000, p. 48.

(2) Kirkbride, D. , "Umm Dabaghiya 1972: A Second Preliminary Report", In: Iraq, Part, 1973, p. 4. Also see: Mathews, op. cit. , p. 60.

(3) Charvat, op. cit. , pp. 8–9

المنطقة وبشكل خاص التنقيبات الأثرية التي قامت بها المنقبة دايانا كركبرايت ممَّا يعكس حالة من الاستقرار والنمو السكاني وتكييف في طبيعة البيئة.

ثانياً. تطور تدجين الحيوانات:

يُعدّ تطور تدجين الحيوانات العامل الثاني في النمو السكاني، إذ يعتقد أنَّ أصول التدجين الأولى كانت مرتبطة بالحاجة الماسة للغذاء في مناطق السهل شبه القاحلة في غربِ أسيا، كما يعتقد أيضاً بأنَّ التغيير الجوهري في طرق معينة الانسان من الصيد الى الزراعة كانت نتيجة للتغييرات الناجمة في ضغط السكان وحاجاتهم المتزايدة لتوفير الغذاء(١)، كما أَنَّ زراعة العصر الحجري الحديث لم تكن للتحقق الغذاء المتكامل على الرغم من توافر حبوب نشوية وبذور دهنية وبقول بروتينية وغيرها من دون لحوم حيوانية قادرة على تحقيق التوازن الغذائي للانسان(٢).

وقد انطلق التدجين من مرتبة الحيوانات التي اصطادها الانسان بشكل بري وبخاصة الصغيرة منها ذات الطابع الاجتماعي والتي كان لديها استعداد فطري لمعايشة الانسان وتواجدت في مناطق الحبوب البرية نفسها(٣)، وكان استئناس وتدجين الحيوانات في مرحلة العصر الحجري الحديث في العراق كان له صلة كبيرة بمسألة النمو السكاني، فقد كان لهذا العامل أثره الواضح في زيادة نشاط سكان قرى العصر وزيادة حجمها ممَّا انعكس على زيادة النسل، ويُستنتج ذلك من بقايا مخلفات عظام الحيوانات ونوعية وحجم عظامها وطبيعة تلك الحيوانات وفوائدها الاقتصادية الجمة لبناء جسم الإنسان وقوته في عدد من مواقع العصر الحجري الحديث التي سنتطرق إليها وسنتناولها في هذا البحث ضمن مؤشرات النمو السكاني وأثره في هذا الجانب .

١. التطور العقلي في تدجين الحيوانات:

يظهر تطور تفكير سكان قرى العصر الحجري الحديث في العراق واضحاً في متابعة سلوك الحيوانات وأنواعها وانتقائها لتعد أحد مؤشرات النمو السكاني، ولم يأتِ تدجينها من فراغ أو بشكل عشوائي بل جاء نتيجة معرفة السكان بأسس عمليات التدجين، وسنحاول الإشارة إلى بعض من تلك الأسس لمعرفة حجم تطور السكان ونموهم العقلي بهذا

(1) Clutton, J. –Brock "The Early History of Domesticated Animals in Western Asia", In: Sumer, vol. 38, 1980, p. 39.

(٢) كون، المصدر السابق، ص١٧٤.

(٣) محيسن، المصدر السابق، ص٢١٨-٢١٩.

الخصوص ومنها المراحل التي مرت بها عملية استئناس وتدجين الحيوانات وهي ثلاث مراحل تمثلت بالمدة المحصورة بين الترويض والاستئناس بما يسمح للحيوان بالاختلاط يمثل نوعه من الحيوانات البرية والمرحلة التي تمت فيها تربية الحيوانات في مكان محصور والسماح لها بالتزاوج والتوالد ضمن حدوده والمرحلة التي تتبع طريقة الانتخاب في تربية الحيوانات وذلك لتحسين صفاتها والحصول على المرغوبة من ناحية إنتاج اللحم والحليب والصوف والجلود ومن ناحية قدرة الحيوانات على العمل(١)، ومن خلال وجود أنواع من الحيوانات المدجنة في قرى العصر. إذ تشير الدراسات الحديثة إلى أن بقايا ومخلفات عظام الحيوانات المكتشفة في قرى العصر نتج عنها حصول ذلك التطور المعرفي بسلوك الحيوانات المدجنة وخصائصها المنفعية ومنها محافظة السكان أو الذين قاموا بعملية التدجين لحيواناتهم في الظروف البيئية في البرية واختيارهم الأصغر وبسهولة وانتقائهم للذكور منها(٢).

٢. منتجات الحيوانات المدجنة ودورها في النمو السكاني:

يعد هذا الجانب من الجوانب المهمة لما له من الأثر البالغ في إحداث تطوير عمليات النمو السكاني وتتابعها لاحقاً وبشكل مستمر، إذ إن تركيز السكان في قرى العصر كان على الحيوانات ذات الفائدة الاقتصادية (الغذائية والاستهلاكية) وبشكل أساس الأغنام والماعز والخنازير وبعض الماشية مما يشير الى المردود الاقتصادي لمنتجاتها والمتمثلة باللحوم والمواد الدهنية والحليب والجلود والصوف ويمكن حصر أهميتها في مسألتين مهمتين:

(١) محمود، حافظ ابراهيم، الثروة الحيوانية في العراق وسبل تطويرها، موصل، ١٩٧٩، ص٣٠.

(٢) قدم الباحث (برايان هيس) المختص بعلم الحيوانات في جامعة (الاباما، برمنغهام) رأياً يقول فيه أن الرعاة القدماء مثل رعاة الحاضر محتمل بأنهم حاولوا الحصول على لحوم الماعز على سبيل المثال بينما لا يزالون يضمون بقاء قطعانهم، كما أنهم قاموا بالتركيز على الإناث من الحيوانات وتدجينها الى مرحلة النضوج والمحافظة عليها حتى ولادتها، بينما في حالات أخرى كان يتم ذبح معظم الذكور الصغيرة والمحافظة على عدد قليل من الأكبر سناً منها لتربيتها وهذه تحتل الاستراتيجية الواضحة والتي لا تزال في الوقت الحاضر مستخدمة في إدارة وتنظيم التدجين.

See: Pringle, H. , "Reading the Signs of Ancient Animals Domestication", In: Science, 1998: 282: 1448 (Internet)

الأولى: ضمان غذاء ثابت مؤمن ومستقر من خلال وجود حيوانات محددة مسبقاً وتحديد نوعية الغذاء الحيواني وقيمته الصحية وهنا يلاحظ التركيز وتحديد القيمة الغذائية لكل نوع أو صنف من الحيوانات ومن ثم الحصول على كميات وافرة من البروتينات والسعرات الحرارية اللازمة التي يحتاجها الجسم البشري.

والثانية: المساهمة في مواكبة التطورات الأخرى المتبقية منها ومن الزراعة قبلها واللتين ساهمتا في النمو السكاني وعلى الأخص الصناعات المعتمدة على المنتجات الحيوانية.

وتنحصر قيمة المنتجات الحيوانية وفوائدها في النمو السكاني بالمجالات الآتية والتي كان لها أكبر الأثر في حصول الزيادة السكانية.

١. اللحوم: تمثل قيمة غذائية كبيرة لاحتوائها على عناصر غذائية كبيرة وبشكل أساس البروتينات فهي تمثل غذاءً رئيساً مهماً للسكان ونموهم.
٢. الحليب: له أثر بالغ في التغذية لقيمته الصحية وخصوصاً عند الأطفال، إذ يمثل الغذاء الرئيس لهم ومن ثم فإن وجوده يمثل استمراراً للتكاثر إذ ان الأطفال يمثلون السن العمرية المهمة للنمو والتكاثر.
٣. الجلود: تمثل أحد أهم المنتجات الحيوانية فبالإضافة إلى أهميتها في صنع الملابس نلاحظ دورها وخصوصاً جلد الماعز الذي تعمل منه أوعية لحفظ السوائل خصوصاً أن شعره أملس مصقول لا ينفذ منه الماء وتعد هذه الخاصية ذات أهمية خاصة لأن حفظ الماء[١] وربما الحليب قد ساهم في استقرار حاجة الإنسان لهما بشكل ثابت إذ ان الحاجة للماء مستمرة وضرورية وان توفر الحليب بشكل دائم في مكان ثابت ضروري للتغذية ولاسيما عند الأطفال.
٤. العظام والأنياب: تمثل مادة مهمة في الجانب الصناعي في عمل الآلات والأدوات والحلي ومنها على سبيل المثال استخدام أنياب الخنزير لعمل السكاكين[٢] وهذا ما يمكن عده عاملاً رئيساً للنمو السكاني.

وفي ختام الحديث عن هذا الجانب يلاحظ بان وجود الحيوانات الداجنة في القرى الزراعية يمثل احتواءً لتلك الفوائد وقيمها ومن ثم يؤشر على وجود نمو سكاني منحصر في هذا الإطار.

(١) كون، المصدر السابق، ص١٧٨.
(٢) المصدر نفسه، ص١٧٩.

ثالثاً. تطور صناعة الفخار:

يعد ابتكار الفخار أحد أهم المظاهر الحضارية المميزة في العصر الحجري الحديث، فقد شكل ابتكاره أهمية أساسية في حياة الإنسان[١]. وقد ابتكر الفخار في النصف الثاني من العصر الحجري الحديث والذي سمي بعصر الفخار سمة تميز الشعوب والثقافات[٢]. وتعد صناعة الفخار أحدى أهم العوامل المساعدة في النمو السكاني ويأتي ابتكاره وصناعته نتيجة توسيع المجتمع وتطوره خلال العصر الحجري الحديث وما بعده وبشكل رئيس توسع العمليات الزراعية وزيادة محاصيلها وخزنها وحفظها خصوصاً في المناطق ذات السقوط المطري المتذبذب والتي دعت الحاجة سكانها الى خزن بعض المحاصيل وبشكل خاص الحبوب. وقد مثلت الجرار والقدور الفخارية أحد أهم وسائل الخزن أولها مما يؤثر على الاهتمام بتأمين الغذاء وتوفره من خلال حفظه في تلك الجرار والقدور وهو ما شكل أهمية قصوى لتحقيق النمو بالاعتماد على توفير وخزن الطعام وكذلك خزنه المياه وجعلها ثابتة ومتوفرة في البيت واستخدامها عند الحاجة وتتجلى أهمية الجرار والقدور أيضاً بشكل فعال في خزن الحليب وحفظه المستخدم لتغذية الأطفال خصوصاً عند قلة أو نضوب حليب النساء المرضعات ومن ثم حاجة الأطفال إلى حليب مساعد استلزمت الحاجة لحفظه ومن هنا جاءت أهميتها في توفير غذاء مهم ورئيس لأهم شريحة في المجتمع وأساس تكاثره ونموه وحسب ما نعتقد. كما برزت أهمية الأواني الفخارية ولاسيما القدور في النمو السكاني باستخدامها في طبخ الطعام وطهيه مما يجعله صحياً وخالياً من الجراثيم والأوبئة يعطى للسكان قيمة صحية انعكست على صحتهم وبنائهم الجسماني ووفر لديهم غذاءً ثابتاً ومخزوناً استخدموه بشكل يومي. كما عكس وجود الفخاريات المزخرفة والملونة حالة من الذوق والتطور الاجتماعي الذي وصل إليه السكان والذي يعد جزءاً من تطور النمو السكاني كاستخدام المطاسات والأقداح للشرب والتي كشف عن نماذج فيها بشكل وحقول وبنقوش وحزو مختلفة. وبالإضافة إلى ما تم ذكره نود ان نشير إلا دور بعض الفخاريات الأخرى في تكامل وتطور عمليات النمو ومؤشراً لها ومن ذلك الآلات والأدوات المستخدمة في العمليات الزراعية كأواني تقشير الحبوب وغيرها مما يؤثر على وجود مواد غذائية تم تصفيتها وتنقيتها و استخدمها السكان في غذائهم. وقد تم رصد العديد من الفخاريات المشار إليها في عدد من القرى الزراعية

(1) Swain, J. W. , The Ancient World, New York, 1962, p. 43.

(٢) محيسن، المصدر السابق، ص٢١٨-٢١٩.

مما يؤثر على حالة النمو السكاني فيها بناءً على ما ورد آنفاً. ومن ذلك العثور في قرية أم الدباغية على أواني فخاري متنوعة منها طاسات بيضوية ومجموعة من الأطباق البيضوية المحززة[١]. كما عثر في قرية حسونة الواقعة جنوب مدينة الموصل بحوالي (٣٥) كم على قدور عمودية الجوانب ذات مقابض معروفة بـ "جرار الحليب" والتي ظهرت بأشكال محززة ومنقوشة في الطبقات (Ib–Iv) من القرية، كما عثر فيها أيضاً على كسر لطاسات مصقولة بشكل جيد ذات لون رمادي وأسود في الأعلى الى الطبقات (Iv–v)[٢]. كذلك عثر في قرية نمريك الواقعة شمالي مدينة الموصل بحوالي (٤٥) كم على كسر فخارية تعود لآنية مصنوعة بشكل جميل[٣] كما عثر على أواني تقشير الحبوب في قرى أم الدباغية وحسونة ويارم بته[٤].

رابعاً. تطور صناعة الآلات والأدوات:

يعد تطور صناعة الآلات والأدوات في العصر الحجري الحديث أحد أهم المؤشرات المكملة للنمو السكاني وأحد أشكاله في القرى الزراعية العراقية القديمة ويعكس طبيعة استخدام تلك الآلات والأدوات المكتشفة حجم نشاطات السكان وكثافة وجودهم واستمرار نموهم ومن أهم الآلات والأدوات التي تعكس النشاط السكاني في تلك القرى: النصاليات والمقاشط والفؤوس والمجارف والمثاقب وهي أدوات استخدمت لقشط وإزالة لحوم وشحوم الحيوانات وقطع الأخشاب والعظام[٥]. مما يدل استخدامها على ممارسة أعمال لها علاقة بتوفير الغذاء النباتي والحيواني من مصادر وجوده الذي كان في متناول السكان تم العثور على بقاياه الى جانب تلك الآلات والأدوات ومما يعزز تلك الحقيقة العثور على كثير من الآلات والأدوات بشكل مشابه من حيث طريقة الصنع والمادة الأولية في معظم القرى مما يدل على زيادة السكان واستمرار الطلب عليها لغرض الحصول على تلك المصادر الغذائية سواء المدجن منها أم البرية، اذ تزامنت عمليات الصيد واستمرارها لمدد طويلة الى جانب عمليات التدجين النباتي والحيواني. ومما يؤكد

(1) Mathews, op. cit. , pp. 55–66.

(2) Ibid. , pp. 66–67

(٣) تقرير نتائج أعمال البعثة البولونية في موقع تحريك للموسم السادس ١٩٨٩.

(4) Mathews, op. cit. , p. 66.

(٥) العاني، عماد طارق، الصناعات الحجرية في العراق حتى نهاية العصر الحجري الحديث، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٦، ص١٤٢-١٤٣-١٤٤.

المعلومات المذكورة رصد العديد من هذه الآلات والأدوات من بين المخلفات والبقايا الأثرية في القرى الزراعية بقايا بذور نباتات وعظام حيوانات لها علاقة مباشرة بها. ومن ذلك العثور في قرية أم الدباغية على نصاليات ومقاشط ومثاقب ومجازف ومزارف[١]. كما عثر في موقع نينوى على مقاشط من بين مخلفاتها الأثرية[٢].

ومن بين الآلات والأدوات التي يدل استخدامها على وجود صلة بالعمليات الزراعية واستمرارها: الفؤوس الحجرية والمعازق والمدقات والهاونات والرحى. ومما لا شك فيه أن وجودها من بين مخلفات القرى الزراعية يشير الى وجود زراعة محاصيل زراعية اقتات السكان على تناولها مما يشير الى وجود استقرار ونمو غذائي متواصل عندهم، اذ ان تلك الآلات والأدوات تستخدم في حفر التربة وتعزيقها وتقليبها وحصد النباتات وطحن البذور[٣]. ومن جانب آخر فإن وجود تلك الآلات والأدوات بانواعها وأحجامها يشير الى حجم العاملين بالنشاطات الزراعية وكثافة السكان ليعطينا من ثم حجم وكثافة النمو في المنطقة، كما يعطينا صورة حقيقية عن النشاط الصناعي والحرفي للسكان وهو بذلك يكمل صورة ذلك النمو والتطور الذي يأخذ وتيرة التزايد المستمر. ومن الأمثلة التي ترصد تلك الحقائق العثور في قرية نمريك على قطعتين مكسورتين من الحجر في المربع (٢) من الحفر يعتقد باستخدامها في سحق الحبوب أو ما يسمى بـ "الجاون" وعلى قطعة حجرية سوداء الشكل بشكل فأس في المربع (١٠)[٤]. كذلك العثور في قرية المغزلية على سكاكين المناجل تشبه المنقار ومواد صب حجرية ومدقات[٥]، ومن بين المواد الصنعة في بعض القرى الزراعية والتي تشكل اهمية كبيرة وخصوصاً في الإعداد والحصول على غذاء الأفران والتنانير التي يعتقد إلى أن من بين استخداماتها عمل الخبز. ومما لا شك فيه أنها تعكس حالة الاستقرار الغذائي الذي كانت تعيشه الأسر من خلال وجود مادة صناعية استخدمت لصنع الخبز الذي كان ولا يزال يشكل المادة الأساس للغذاء لكل الأسر ويمثل انعكاساً وتكاملاً لعملية النمو الغذائي للسكان إذ زيادة الأسر و حجمها استدعى بالضرورة تقسيم العمل بين أفرادها مما يعطينا تطوراً عن حجم التنظيم

(1) Charvat, op. cit. , p. 16.

(2) Mathews, op. cit. , p. 69.

(٣) العاني، المصدر السابق، ص١٥٦-١٥٧.

(٤) تقرير عن نتائج أعمال البعثة البولونية في الموسم الأول في موقع قرية نمريك الأثري.

(5) Mathews, op. cit. , p. 47.

الاجتماعي والعائلي لها. ومما يدلل على وظيفة تلك المادة المصنعة لعمل الخبز العثور على افران أو تنانير والى جانبها بقايا حبوب متفحمة وهاونات وموقات، إذ تعتمد عملية صنع الخبز كما هو معروف على الحبوب بعد حصادها وسحقها وطحنها.ومن بين القرى الزراعية التي تم العثور فيها على أفران وتنانير قرية حسونة في الطبقة (Ic) منها إذ تم العثور على أفران وآثار لرماد خشب أو فحم مما يدل على استخدامه لإحداث النار وتهيئته لإعداد وعمل الخبز في تلك الأفران[١]، كذلك العثور في قرية نمريك على بقايا تنورين في الحافة الشمالية من التنقيب في الموقع[٢] وتعد قرية يارم تبة (I) الواقعة على مسافة حوالي (٦-٧)كم جنوب غرب بلدة تلعفر غرب مدينة الموصل على ما يبدو من أكثر القرى التي عثر فيها على تنانير وأفران الخبز، إذ عثر في الطبقة الرابعة منها على (١٣) تنوراً مقبباً، كما عثر في طبقات أخرى وتحديداً من الطبقة العاشرة فصاعداً على عدد من التنانير ومنها في الطبقات (p1. II)، (vith) وبنوعين مستديرة ومستطيلة[٣]. مما يدل على سعة استخدامها من قبل السكان.

خامساً. تطور العمارة:

يعد تطور العمارة أحد أهم أشكال النمو السكاني في جميع قرى العصر الحجري الحديث في العراق، إذ سكن سكان العصر بوجه عام في بيوت قوية وكبيرة ذات أشكال مربعة ومستطيلة متلاصقة مع بعضها ويمكن توسعها كلما دعت الحاجة. إذ عاشت في هذه البيوت مجموعات كبيرة قامت بينها علاقات أكثر تنظيماً[٤].

وتشير المخلفات العمارية المكتشفة في القرى الزراعية في العراق على مؤشرات مهمة يمكن الاعتماد عليها في تحديد معالم النمو السكاني إذ تنحصر في (٣) جوانب تتمثل بتخطيط البيوت وعدد غرف البيوت ومساحاتها ووظائف الغرف.

١. تخطيط البيوت:

---

(1) Ibid. , pp. 66–67.

(٢) تقرير عن نتائج أعمال البعثة البولونية، المصدر السابق.

(3) Mathews, op. cit. , p. 64. Also see: "Excavation in Iraq 1972–73", In: Iraq, vol. XXXL, 1973, pp. 15–16.

(٤) محيسن، المصدر السابق، ص٢١٨-٢١٩.

يعد تخطيط البيوت من الأمور الهامة في تحديد حجم الأسر ويحدد أفرادها ومن ثم تحديد حجم وشكل نموهم السكاني و شكله. إذ يلاحظ بان هنالك نوعين من تخطيط البيوت يتمثل بالتخطيط الدائري والمستطيل وبمساحات مختلفة. ولتحديد معايير النمو في هذا الجانب اعتمدنا على إجمالي عدد البيوت الكلية في القرية ومساحة البيت الواحد مع المساحة الكلية للقرية لنستنتج أعداد السكان وأفراد الأسرة الواحدة وحجمها بشكل تقريبي لتحديد معالم وشكله النمو السكاني فيها.

فعلى سبيل المثال قرية نمريك التي عثر فيها على ما يقارب من (٧) دور سكنية تركزت بشكل خاص في القسمين الأوسط والجنوبي تبلغ أبعادها حوالي (١٠٠ × ٨٠) م. وقد شيدت تلك البيوت بشكل دائري ضمن حدود تلك المساحة تراوح قطر البيت الواحد منها ما بين (٥–٦)م بمساحة تقرب من (٣٥)م٢[١] ان تلك الأبعاد والمساحات تقودنا الى الاستنتاج بوجود نمو بسيط في القرية من خلال تقدير وجود أعداد قليلة من السكان عاشوا بأسر قليلة العدد في ظل سكن محدود بمساحات صغيرة داخل بيوت محدودة المساحة. وبالرغم من النمو البسيط لسكان القرية الا ان هنالك ما يثير الى قيمة ذلك النمو وذلك من خلال التخطيط الدائري للبيوت، إذ ان السكن ضمن ذلك التخطيط يشير الى تجمع أفراد الأسرة مجتمعين بشكل متقارب في ذات المساحة أي ان البيت بحد ذاته يمثل وحدة سكنية متفردة رغم خطوة من الغرف أو قلتها مما يؤثر على وجود الأسرة الواحدة وتزايد أعدادها وأفرادها.

ومن المؤشرات الأخرى المتعلقة بهذا الجانب والتي تدل على النمو السكاني ولكن بنمط آخر هو ما تم العثور عليه في قرية المغزلية من صف من البيوت محاطة بسور دفاعي والذي أنها بعدئذ او تعرض للإهمال قبل ان يهجر الموقع وقد بلغ طول السور حوالي (٦٠)م وهو جزء ناتئ مبني من حجر الكلس وعلى ما يبدو أن لهذا السور وظيفة دفاعية وقد غطى مساحة بلغت حوالي (١٥٠٠)م داخلها بيوت احتوت على عدة غرف ويرجح أنه كان يعيش في كل بيت من تلك البيوت (١٠–١٥) شخصاً، وقد قدر عدد السكان في تلك المدة من الموقع بحدود (١٠٠–١٥٠) شخصاً[٢] ومما لا شك فيه ان

(١) تقرير عن أعمال البعثة البولونية في موقع نمريك/ الموسم الثالث.
وينظر أيضاً: الأعظمي، محمد طه محمد، الأسوار والتحصينات الدفاعية في العمارة العراقية القديمة، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٢، ص٤.

(2) Mathews, op. cit. , p, 47.

تلك الأبعاد والأعداد المقدرة للأشخاص والسكان يعكس زيادة أفراد الأسرة الواحدة ضمن البيت الواحد ويعكس حقيقة التكاثر والنمو العائلي نتيجة تطور الأوضاع المعاشية والاقتصادية و تحسنها وبشكل رئيسي توفر مصادر الغذاء، كما يشير الى تطور العلاقات الاجتماعية لأفراد الأسرة وكثرة حالات الانجاب والذي يشير الى التغذية الصحية والطبيعية للمرأة والأطفال وهو ما انعكس على صحتهم وسرعة نموهم الطبيعي.

كما يعكس وجود السور الدفاعي عن تماسك أفراد المنطقة وترابطهم اجتماعياً وشعورهم المشترك والعمل على مواجهة الأخطار. ومن جانب أخر يعكس وجود هذا السور عن وجود أعداد بشرية وفيرة ساهمت وقامت بشكل فعال ببنائه، إذ أن حجم ارتفاعه المشار إليه يحتاج بكل تأكيد الى جهود مضيئة وقدرات بشرية كبيرة وهو مؤشر على زيادة النمو السكاني.

ومما تجدر الإشارة إليه ضمن سياق هذا الموضوع هو ان البيوت ذات التخطيط المستطيل تعطي إشارات واضحة على وجود تعدد سكاني وزيادة عدد أفراد الأسرة، إذ يلاحظ بأن هذا التخطيط يوفر مساحات سكن واسعة لأنه يتيح بناء غرف متوسطة وكبيرة الحجم بإمكانها استيعاب اعداد كبيرة وجيدة من السكان. ومن ذلك ما تم ملاحظته في الطبقة (٦) من قرية يارم تبه (I) التي ضمت أبنية مستطيلة متعددة الغرف يعتقد أن الاستيطان فيها كان بشكل مكثف[١]. وكذلك ما تم العثور عليه في قرية حسونة في الطبقتين الثانية والثالثة والتي شيدت بيوتها وفق التخطيط المستطيل وضم لكل بيت منها على عدد من الغرف الصغيرة استخدمت للنوم والمعيشة والخزن[٢]. مما يشير الى تعدد حاجات الأسرة وحجمها ومستوى معيشتها الاقتصادية ويندرج هذا ضمن النمو السكاني المتزايد.

٢. عدد الغرف ومساحاتها:

من الملاحظ أن البقايا المعمارية للبيوت في القرى الزراعية خلال العصر الحجري الحديث قد تميزت بتعدد الغرف وتباين مساحاتها مما يشير الى تزايد متطلبات الأسرة وتنامي احتياجاتها الاقتصادية وتعدد وظائفها الاجتماعية نتيجة تزايد عدد الأفراد فيها والذي أخذ تدريجياً وتيرة التزايد والتعقد، إذ يبدو واضحاً من تخطيطات الغرف ومساحاتها في القرى المكتشفة حقيقة ذلك والتي تعد معياراً للنمو السكاني المتزايد. وفي

(1) Ibid. , p. 64.

(٢) الأعظمي، المصدر السابق، ص٩.

إطار هذا السياق تم حصر قياسات وأبعاد بعض غرف البيوت من خلال نتائج التنقيبات الأثرية في البيوت والتي من خلالها تم تحديد صورة وحجم الأفراد الساكنين فيها وتحديد حجم النمو السكاني، إذ تراوحت تلك القياسات بحدود (١٢ × ١٠)م كما في قرية المغزلية[١] التي نعتقد أنها انفردت بهذه السعة ربما بسبب كثرة أعداد سكانها بشكل عام وأفراد الأسرة الواحدة بشكل خاص أو بسبب استخدام تلك الغرف كمخازن و(٢. ٥ × ٣. ٥)م و(٤ × ٣)م و(٢ × ٢)م كما في قرية يارم تبه[٢]. و(٢ × ١. ٥)م كما في قرية جرمو[٣] و(١. ٥ × ١. ٧٥) كما في قرية أم الدباغية[٤].

إن تلك القياسات تعكس حقيقتين:

الأولى: عدد الأفراد الساكنين في تلك الغرف وحجمهم والذين يظن أنهم كانوا متوسطي العدد تراوحت أعدادهم ما بين (٣–١٠) أشخاص وفي بعض الحالات قد يصل الى (١٥) شخصاً وذلك كلما زادت مساحة الغرف وقد اعتمدنا في تقديرنا هذا على أساس مساحة الغرفة الواحدة وعدد الأشخاص الذين يمكنهم المكوث في تلك الغرفة نسبة لمساحتها بعدد الأمتار الناتج ضمن المساحة الكلية الناتجة من حاصل ضرب الطول في العرض لنحصل على النسبة التخمينية لعدد الأشخاص.

والثانية: حجم المواد والحاجيات المخزونة، إذ إنه كلما زادت المساحة زاد حجم تلك المواد وبشكل تصاعدي وهي معادلة طردية تؤدي بالنتيجة الى معيار النمو السكاني.

وفي السياق نفسه نستشف من أعداد الغرف المكتشفة عن معايير وان كانت بدرجات متفاوتة عن حجم النمو السكاني وبصيغ مختلفة حسب استخدام تلك الغرف، إذ يلاحظ وجود غرف في بعض البيوت تراوحت ما بين (٤–١٠) غرف من ذلك العثور على بيوت صغيرة في قرية ام الدباغية احتوت ما بين (٤–٥) غرف صغيرة ضمت بعضها خزانات صغيرة وأوعية[٥]. كما تم العثور في قرية يارم تبه (I) على أبنية ضمت ما بين (٣–٥) غرف مستطيلة ذات جدران يصل سمكها الى حوالي (٣٥) كم وفي الطبقة (١١) منها عثر على (٣) أبنية تكون كل منها من (٧) غرف وعثر في الطبقة (٩) أيضاً

(1) Mathews, op. cit. , p. 47.

(2) Ibid. , p. 64.

(٣) الأعظمي، المصدر السابق، ص٨.

(4) Mathews, op. cit. , p. 58.

(5) Ibid. , p. 58.

على ما يقرب من (٩) غرف وفي الطبقة (٨) عثر على (١٠) غرف مما يشير الى زيادة الكثافة والنمو السكاني فيها وتعدد الحاجيات والمواد والسلع[١]. ونرصد في إطار السياق ذاته في قرية حسونة التي تم العثور في الطبقة (II) منها على مجموعتين رئيسيتين من الغرف المنزلية أو العائلية محاطة بأبنية مفتوحة ضمت إحداها مواد منزلية[٢].

إن هذا التخطيط المتعدد الغرف يشير بكل وضوح الى زيادة عدد أفراد الأسرة الواحدة والتي تجتمع سوية حول فناء واسع، كما يشير تعدد الغرف الى وجود وظائف أخرى لها إضافة الى وظيفتها الرئيسه للمعيشة والسكن تمثلت بخزن حاجيات الأسرة الأساسية والمهمة ومنها على سبيل المثال المواد التي تم العثور عليها في الموقع الأخير داخل بعض الغرف شملت قدور كاملة وأدوات مصنوعة من حجر الصوان وعظام حيوانات[٣]. وهي تمثل بدورها حاجيات منزلية يومية تحتاجها الأسرة مما يؤشر بدوره معياراً مهماً لوجود نشاط حياتي يومي مستمر.

٣. وظائف الغرف:

مما لا شك فيه أن تعدد الغرف داخل البيوت السكنية كما أسلفنا سابقاً يمثل مؤشراً حقيقياً على تنامي حجم الأسرة ومتطلباتها الاقتصادية والاجتماعية ويعطي دليلاً قاطعاً على استخدام تلك الغرف في أحيان كثيرة لتلبية تلك المتطلبات وكان تخزين البضائع والمحاصيل الزراعية في مقدمة تلك الوظائف، إذ ان تطور الحياة خاصة بعد استقرار الإنسان في القرى الزراعية أدى الى الوفرة التي بدأت بالتطور بمستوى أكثر فاعلية مع تنامي احتياجاته، كما أصبحت غرف الخزن أو ما سميت بالمخازن متعددة الأغراض وكثيرة بكثرة الإنتاج الاقتصادي.

وقد استخدم الإنسان المخازن عندما كان يحاول تلبية احتياجاته المتزايدة مستخدماً ما لديه من إمكانيات متوفرة[٤]. ومن خلال بقايا المخلفات المعمارية في القرى الزراعية القديمة يلاحظ وجود أماكن خزن مهمة تستشف منها أخذ مؤشرات حقيقة على وجود نمو سكاني وهو ما يهمنا من موضوع بحثنا وتحديد شكل ذلك النمو بالاستناد إلى

(1) Ibid. , p. 69.

(2) Ibid. , pp. 66–67.

(3) Ibid. , pp. 66–67.

(٤) سلمان، حسين أحمد، المخازن في العراق القديم الى نهاية العصر البابلي القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٣، ص٣.

وظائف تلك المخازن وما تحويه من مواد. فالملاحظ إن استخدام المخازن كان لغرض خزن المحاصيل الغذائية وبالأخص الحبوب وخزن الفائض منها لغرض توفيرها في الفترات التي لم تكن تتوفر إمكانية حصول زراعة ديمية عند عدم سقوط أمطار كافية للزراعة وكذلك تخزين المواد الفائضة عن الحاجة كالفخاريات والمنسوجات وجلود بعض الحيوانات لغرض مقايضتها بمواد يحتاجها السكان وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال نتائج التنقيبات الأثرية في بعض القرى الزراعية وتثير كثرة المخازن إلى سعة المحاصيل الزراعية المخزونة والبضائع و حجمها والى كثرة وحجم عدد أفراد الأسرة والسكان حجمهم بوجه عام مما يعطي صورة حقيقية لوجود تنامي سكاني متمثل بتأمين غذائي وسلعي كبيرين والى تواصل النشاطات الاقتصادية وحجم الأسر المتزايد في البيوت والقرى عامة.

وسنحاول في هذا السياق أن نقدم أمثلة على ما تم ذكره. فالملاحظ أن تنوع وسائل الخزن داخل البيوت التي تمثلت في أشكاله البدائية بالجرار الفخارية والمخازن الطينية المطلية أحياناً بالجبس أو القار من الداخل والخارج[١]، وحجرات الخزن المنفردة داخل الوحدات السكنية أو خارجها والمجمعات المخزنية وهي البنايات التي صممت أساساً لأداء الوظائف العامة[٢]. وبهذا الصدد نشير إلى أن أهم أشكال النماذج المخزنية التي تم العثور عليها من مواقع القرى الزراعية تعد دليلاً واضحاً على ما تمت الإشارة إليه.

ومن ذلك العثور على ما يشبه صندوق لخزن الحبوب بلغ ارتفاعه حوالي (٦٥)كم وقطره (٤٥) سم في قرية المغزلية[٣]. كما كشف في الطبقة (٥) في قرية يارم تبه (I) عن مخازن بصفوف متوازية من الغرف مما يدل على كثرة المنتوج المخزن واستخدامه للحالات الطارئة أو لغرض المقايضة وهو ما يعطي دليلاً على انتعاش الأوضاع الاقتصادية في القرية من خلال توفير أكبر قدر ممكن من الإنتاج لتلك الحالات. كما كشف في قرية حسونة في الطبقة (IV) منها على عدة أبنية يعتقد أنها كانت مخازن، إذ إن أحد الغرف وجد فيها أكوام من الكرات الطينية[٤] التي قد تشير إلى

(١) المصدر نفسه، ص٣.

(٢) الشيخ، عادل عبد الله، عمارة العراق في العصرين الحجري الحديث والحجري المعدني حتى نهاية طور العبيد، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٥، ص٧٢-٨٠.

(3) Mathews, op. cit. , p. 47.

(4) Ibid. , p. 64

استخدامها في العدو لحساب موجودات المخازن. ومن المكتشفات المهمة المندرجة ضمن هذا الموضوع والتي تقدم نموذجاً مثالياً ودليلاً قاطعاً على تواصل النمو السكاني في ظل ظروف بيئية ومناخية صعبة ما تم كشفه في قرية أم الدباغية والتي سبقت الإشارة إليها والى وجود مؤشرات نمو سكاني فيها رغم تعرضها للظروف البيئية والمناخية المشار إليها آنفاً ووقوعها في بيئة شبه صحراوية وبعيدة عن مصادر المياه وهذا ما دعا سكانها إلى أخذ احتياطاتهم بادخار بعض و خزنها المواد كجلود بعض الحيوانات وبشكل خاص الاونيكر الذي حظي بتواجد مكثف فيها وقيام سكانها بمقايضة جلوده بالسلع والمنتجات الأساسية التي كانوا يحتاجونها. وقد دلت نتائج التنقيبات الأثرية في القرية الى استخدام عدد من المرافق المعمارية المتمثلة المخازن مما يوضح حرص السكان فيها على نموهم واستقرارهم فقد عثر على عدد من المخازن الطويلة والقصيرة بشكل غرف مترابطة على (٣) جوانب وجدت في فضاء مفتوح وقد وجد داخل هذه الغرف عدد كبير من عظام وجلود حيوان الاونيكر الذي سبقت الإشارة إليه وهذا ما قاد بعض الباحثين الى الاعتقاد بأن تلك الغرف كانت مخازن مركزية[١]. كما عثر في الطبقة (III) من القرية على مجموعة من غرف الخزن الصغيرة منها اثنين من الغرف وجدت فيهما جرار كبيرة موضوعة أسفل أرضياتها[٢] كما عثر أيضاً على أبنية بشكل حظائر حيوانات عدت دليلاً على استخدامها على ما يعتقد لتدجين الحيوانات أو لذبح الحيوانات المصطادة. فضلاً عن كشف غرف بشكل أحواض للخزن[٣].

سادساً. تطور عمليات المقايضة:

تعد المبادلات المستندة على نظام المقايضة أي مبادلة السلع والمنتجات بما يقابلها أحد أوجه النمو السكاني من خلال الجوانب الآتية:

١. حجم النمو المتزايد في القرى وانتعاش الأوضاع الاقتصادية وتطور الأوضاع والصلات والعلاقات الاجتماعية فيها.
٢. الحاجة الفعلية للمنتجات والسلع الضرورية التي لا تتوفر في البيئة المحلية.

(1) Nissen, J. N. , The Early History of the Ancient Near East 9000–2000BC, Chicago, 1988, pp. 33–34.

(2) Mathews, op. cit. , p. 58. Also see: Charvat, op. cit. , p. 15.

(3) Ibid. , p. 15.

٣. وجود أشخاص أو أفراد متخصصون في نقل وتوريد السلع والمنتجات ما بين تلك القرى والمناطق المجاورة الداخلية منها والخارجية مما يعكس حجم النشاطات التي يزاولها بعض السكان نتيجة تزايد أعدادهم وحاجاتهم.
٤. وجود علاقات وروابط ووسائل تفاهم وتخاطب ما بين السكان المحليين من جهة والسكان الذين تم جلب ومقايضتها السلع والمنتجات فهم خارج القرى الزراعية.
٥. معرفة المناطق الموردة المهمة والطرق والمسالك المؤدية إليها.

إن تلك الجوانب المشار إليها تمثل جانباً مهماً من جوانب النمو السكاني كما يظن وكما عكسته نتائج التنقيبات الأثرية المتمثلة بالعثور على منتجات وسلع مستوردة غير موجودة في البيئة المحلية للقرى الزراعية. ويشير بعض الأبحاث في هذا المجال الى حقيقة النمو السكاني من خلال تزايد المبادلات التي كانت تتم من خلال التنقل لمسافات طويلة إلا أنها كانت أمراً شائعاً وثابتاً في منطقة غربي أسيا ومنها العراق خلال العصر الحجري الحديث وان انتقال البضائع بين المناطق وبين المجاميع السكانية كان شائعاً أيضاً بين المجتمعات التي وجد فيها تقسيم للعمل انعكس على عمليات التبادل التجاري التي كانت منتظمة فيها وقد أدت تلك العمليات إلى وظائف عديدة ناتجة عن تنظيم العمل بين الأفراد(١).

إن هذه الدراسة تبين ومما لا يقبل الشك الإطار العام المنظم للمجتمعات القروية من خلال التنظيم الاجتماعي الذي يعكس حالة النمو المتزايد والتطور الاجتماعي الذي وصل إليه سكان القرى تدريجياً وتشير دراسة أخرى بهذا الصدد وتوضح دور الطرق التي كانت تخترق الجبال والصحاري والمياه في ربطها المجتمعات الأولى بشبكة من المواصلات التي لابد أنها أثرت في تطورها إلى حد بعيد، وان الاتصالات الدقيقة التي قام بها الأفراد للمتاجرة بالبضائع لابد أنها كانت عاملاً رئيساً في سرعة التطورات الاقتصادية والسكانية(٢).

وسنحاول في هذا الجانب إعطاء أمثلة توضح تلك العلاقات المتبادلة لسكان القرى الزراعية التي تعكس تطور النمو السكاني فيها المستند على التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي كان قائماً على عمليات المقايضة. ومنها قرية أم الدباغية، اذ توضح

(1) Yoffee, N. , Explaining Trade in Ancient Western Asia, Malibu, 1981, pp. 22–23.
(٢) ديكيسون– كان– فري، "الحجارة الأوبسيدية وأصول التجارة"، ترجمة: رضا العاشمي، مجلة سومر، ع٢–١، مج٢٨، ١٩٧٢، ص٢٦٠.

الحضارة المادية فيها وجود صلات قوية بالمناطق الواقعة شمالاً مثل "سوتو" و"كول تبه" و"بوكراس" الواقعة بحدود (٢٠٠)كم غرب القرية في نقطة اتصال نهري عبر الخابور والفرات ونوعاً ما في مناطق زاكروس وتمثل القرية بشكل أكيد تطوراً معقداً لنموذج التفاعل الايكولوجي[١] الذي استمر لعدة آلاف من السنين والذي يعود بجذوره الى العصر الحجري القديم[٢]، وتدل المكتشفات الأثرية المنحصرة في هذا المجال على حقيقة ما ورد ذكره من خلال العثور في القرية على مواد مصنوعة من الأوبسديان وقواقع ذات اسنان يعتقد أن مصدرها الخليج العربي أو البحر المتوسط والعثور أيضاً على أحجار رحى مصنوعة من مواد تم الحصول عليها من مصدر أو منطقة تبعد عن القرية بحوالي (٣٤)كم[٣] كذلك العثور في القرية على طاسات بيضوية مصنوعة من المرمر والتي كانت فريدة فيها مما يشير الى جلبها من منطقة أخرى. كما عثر أيضاً على جرتين ذات لون قرنفلي مصنوعتين من حجر الكلس أو الجير مما يشير أيضاً الى جلب ماديتيهما من خارج القرية[٤]. وفي الإشارة الى الاوبسديان أبانت نتائج التنقيبات الأثرية المتعلقة بالمواد المصنعة من هذا الحجر العثور ما نسبته (٦. ٣%) من مجموع الأحجار المكتشفة ويعتقد ان المصدر الرئيسي لذلك الحجر المستورد من مناطق منتجة ومورده له في بلاد الأناضول وتحديداً منطقة (ciftlik) التي تبعد نحو (٨٠٠)كم الى الشمال الغربي ومنطقة بحيرة فان التي تبعد عن القرية بنحو (٤٥٠)كم[٥]. إن المناطق المذكورة تشير الى عمليات تبادل تجاري انعكست أثاره في العلاقات الاجتماعية ما بين سكان تلك القرية وسكان المناطق المشار إليها وهو ينصب على وجود نشاطات من شأنها استمرار النمو السكاني المتمثل فيها من خلال استخدامات تلك المواد في الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها. وبالإشارة إلى عمليات المقايضة التي كان لها الأثر البالغ في تطور وانتعاش النمو السكاني العثور في قرية يارم تبه (I) على مواد مستوردة تشير الى وجود صلات مع المناطق الموردة لها من ذلك العثور على خرز مصنوع من حجر الفيروز والعقيق

(١) علم الايكولوجي (علم التبيؤ): فرع من علم الأحياء يدرس العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها.

(2) Mathews, op. cit. , p. 60.

(3) Charvat, op. cit. , p. 15.

(4) Krikbride, op. cit. , pp. 4–5.

(5) Mathews, op. cit. , p. 59. Ibid, pp. 65–66.

الأحمر، كما عثر على حجر أخضر اللون مرقط كجلد الأفعى[١]، وأخيراً نود أن نشير بهذا الصدد عما تم العثور عليه في قرية المغزلية من مواد مصنوعة من الاوبسديان والتي عثر عليها في معظم طبقات القرية تقريباً وبشكل خاص في الأدوار المبكرة وبأشكال وألوان خضراء وسوداء وبنية. ويعتقد أن مصدر الأوبسديان المصنع من منطقة (Bingol) الواقعة في قلب الأناضول، إذ يمثل ذلك الحجر ما نسبته أقل من (٥٠%) من مجموع الأحجار المكتشفة في القرية. كما عثر في القرية أيضاً على مثقب مصنوع من نحاس مطروق وتشير التحليلات المختبرية التي أجريت عليه بأن مصدر مادته الخام من منطقة لورستان في شمال إيران[٢].

سابعاً. تطور المفاهيم الاجتماعية والفكرية والتقنية:

يعد تطور المفاهيم الاجتماعية والفكرية والتقنية أحد أهم معالم النمو السكاني في القرى الزراعية القديمة وتعكس تطور المجتمع ومواكبته لسلسلة التطورات المترابطة والمتواصلة والتي قادت الى النمو وتصاعده بوتيرة متزايدة.

١. تطور المفاهيم الاجتماعية:

تتمثل أهم المفاهيم الاجتماعية والتي تم حصرها بالدفن، إذ تم التركيز على الجوانب الآتية منه: (أشكال الدفن/أوضاع الدفن/طرق الطرق/أماكن الدفن/حاجيات الدفن/توجيه جثث الأموات) .

وقد تم اقتباس بعض جوانب التطور الاجتماعي واستنتاج مفاهيمه من تلك الجوانب بما يقود الى تحديد شكل النمو السكاني وأطره منها. وفي معرض حديثنا عن جوانب الموضوع سنحاول التطرق الى تلك الجوانب بشيء من التفصيل مع الأمثلة بالإشارة عنها مجتمعة. ومن ذلك دفن الجثث تحت أرضيات الدور وجدرانها ووضع الجثة بشكل منثني وقد تمثلت تلك الحالات من خلال ما تم العثور عليه في قرية ام الدباغية التي عثر فيها على قبر فيه جثث موضوعة بشكل منثني ويقع هذا القبر على منحدرين

(1) Ibid, pp. 65–66.

(2) Ibid. , p. 47.

في القرية[١] كما عثر في القرية أيضاً على (٥) قبور بشكل بيضوي مرتب بعمق (١.٥٠)م وكانت خالية من مواد الدفن[٢] مما يشير الى الاهتمام بدفن الجثة وبعمق مناسب وهذا يدلل على الاهتمام بالشخص المتوفى و الاعتزاز به من خلال دفنه في نفس البيت نفسه كنوع من التواصل لروح ذلك المتوفى مع الأحياء واستذكاراً له. كما تم الكشف في منطقة يارم تبه (I) خلال التنقيبات التي جرت في المنطقة سنة (١٩٧٠) عن قبور أطفال داخل بيوت السكن، إذ ان اثنين من تلك القبور تعود الى الطبقة (V th) وكان أحد تلك القبور في حفرة تحت عتبة البيت كما عثر على هيكل عظمي موضوع في إناء كبير وعثر على قبر أخر يعود الى الطبقة (IV) من القرية وكان تحت أرضية الغرفة الموجودة في الدار. وكان اثنان من تلك القبور يعودان لأطفال حديثي الولادة ويرجح أنهما توأم وضعا في حفرة خاصة. وفي كل الحالات كانت الهياكل العظمية المكتشفة في وضع منثني بشكل واضح على جانبهم الأيمن وبتوجيه نحو جهة الشرق أو الجنوب[٣] مما يعكس وجود اشارات غير قطعية لأفكار تتعلق بمعتقدات دينية أو ربما اجتماعية أو نوع من العادات أو الشعائر والاعراف التي كان لها دلالاتها عند سكان القرية. كما عثر في قرية المغزلية على (٨) قبور وجد (٥) منها أسفل او تحت أرضيات البيوت وتعود تلك القبور الى أفراد بالغين وطفل يعتقد أنه رضيع وقد عثر في أحد تلك القبور على حزرة مصنوعة من الرخام تعود لجثة شاب[٤] مما قد يثير الاعتقاد بوجود حياة اخرى بعد الموت. وقد وجدت تلك القبور بشكل مجاور ومحايد فيما بينها[٥] مما قد يوحي بأنها تعود لعائلة واحدة. اما في قرية يارم تبه (I) فقد اكتشف في الطبقات السفلى (٧-١٢) عن (٢٠) قبراً تعود منها لأطفال بعمر أقل من سنة واحدة كانوا قد دفنوا في أواني تحت جدران وأرضيات وعتبات البيوت وكانت الجثة بوضعية التقلص (القرفصاء) من دون توجيه وكان القليل منها يحتوي على مواد دفن قليلة تضمنت قدور وعظام حيوانات. كما تعود تلك القبور لأفراد بالغين كانت أجسادهم ممزقة وقد وجد في أحد الأبنية الدائرية في

(1) Charvat, op. cit. , p. 15.

(2) Kirkbride, op. cit. , p. 4. Charvat, op. cit. , p. 15.

(1) Excavation in Iraq, 1972–1973, op. cit. , pp. 15–16.

(2) Mathews, op. cit. , p. 47.

(3) Ibid. , p. 47.

الطبقة (١٢) عظاماً لجثتين أو (٣) لأفراد بالغين كانت مرافقة لعظام أغنام وفخار[١] وفي تل سوتو الذي يعاصر جزئياً قرية ام الدباغية تم الكشف عن (٩) قبور (٦) منها في الطبقة (٢) وقبر واحد في كل من الطبقات (٨، ٤، ٧) وكانت تلك القبور تحت أرضيات البيوت وقد عاد بعض من تلك القبور الى أطفال صغار أو رضع قدرت أعمارهم ما بين (١–٣) سنوات دفن قسم منهم في أواني أو أوعية وبعضهم في حفر قليلة العمق[٢]. وهنا لابد من الإشارة الى عادة دفن الأطفال داخل جدار أو اوعية والتي ربما تعكس الأهمية التي يشكلها الأطفال وانعكاس لمجتمعهم الغريزية من قبل افراد الأسرة وتمييزهم بوضعهم بشكل خاص ومميز داخل تلك الجرار أو الأوعية. أما القبور الأخرى فكانت لشبان قدرت أعمارهم ما بين (١٠–١٤) سنة وقد تم العثور في اثنين من تلك القبور على موجودات منها كوب مصنوع من الطين في أحد تلك القبور وإناء صغير وعظام حيوانات وقلادة مصنوعة من حرز حجري بعضها مصنوع من حجر المرمر في القبر الآخر الذي يعتقد أنه يعود لفتاة[٣] أما في قرية حسونة فقد تم العثور على ما يقرب من (١٢) قبراً تعود لأطفال كانوا جميعهم موضوعين في أواني أو جرار. وقد وجد في إحدى الأواني أو الجرار والتي كانت محززة وطويلة الجوانب جثتي طفلين حديثي الولادة يعتقد أنهما توأم وقد تم الكشف عنهما في الزاوية الشمالية الغربية من المنطقة المكتشفة في الطبقة (II) وقد وجد في الجرة أو الوعاء كوب فخاري صغير جداً وقد قدر عمري الطفلين بحدود (٦) أشهر[٤].

وفي الختام نود أن نشير الى خلاصة ما تم عرضه، وتحديد أهم المفاهيم الاجتماعية وربما الدينية في بعض الحالات لهذا الجانب المهم المتعلق بالنمو السكاني الذي ترافقت معه ظهور هذه المفاهيم.

١. دفن العديد من الجثث تحت أرضيات وجدران وعتبات البيوت والتي نعتقد أن الغاية من ذلك التواصل الروحي مع روح المتوفى كما وردت الإشارة سابقاً كنوع من تخليده واستذكاره بشكل متواصل ومستمر.

---

(4) Ibid. , p. 64.

(5) Ibid. , p. 68.

(1) Ibid. , p. 68.

(2) Ibid. , p. 67. Also see: Abdul Aziz, M. H. Slipka, J. "Twins from Tell Hassuna", In: Sumer, vol. 22, 1966, p. 45.

٢.وضع بعض الجثث بشكل منثني وبهيئة التقلص (القرفصاء) إذ نعتقد ان الغاية منها هو تشبيه المتوفى بالطفل المولود حديثاً الذي يولد وهو بشكل منثني ومن ثم فإن ذلك المتوفى سيذهب الى عالم آخر وهو عالم ما بعد الموت ويولد من جديد حسبما نعتقد وربما كان ذلك اعتقاد السكان.

٣.وضع بعض الجثث وبشكل خاص الأطفال داخل جرار وأواني.

٤.وضع بعض الجثث في حفر خاصة.

٥.توجيه بعض الجثث على الجانب الأيمن ونحو الشمال أو الجنوب.

٦.العثور في العديد من القبور على مواد وحاجيات موضوعة الى جانب الجثة.

٧.جعل بعض القبور متقاربة ومتجاورة فيما بينها.

٨.دفن بعض أجزاء المتوفى في أواني. وهنا نود أن نشير الى واحدة من تلك الحالات والتي تشير الى نوع من المفاهيم الاجتماعية والتي تؤكد على استمرار تلك المفاهيم وتوارثها وتناقلها منذ فترات زمنية طويلة هو دفن رؤوس بشرية في آنية في موقع الأربجية الواقع بحوالي (٦) كم شمال شرق مدينة نينوى. إذ عثر على ثلاثة رؤوس أو اثنان أو رأس واحد دون الجثة.

٢. تطور المفاهيم الفكرية:

يعد تطور المفاهيم الفكرية أحد أهم جوانب النمو السكاني ومؤشر مهم على التطور العقلي والإبداعي لسكان القرى الزراعية. وفي هذا السياق نود أن نشير الى حالة مميزة تم حصرها تحديداً كمثال من بين عدة أمثلة على ذلك وهو ما تم العثور عليه في قرية أم الدباغية والذي يمثل أحد أهم المظاهر اللافتة للنظر في البيوت العائلية والمتمثلة بالجدران المصبوغة والمطلية بالجص (شكل-١-) والتي كان فيها تمثيل فني رفيع تمثل برسم شرائط حمراء مثلت بمشاهد رمزية أثارت الاهتمام. وقد تضمنت تلك المشاهد المرسومة مشاهد أو صور لحيوان الأونيكر أو ما يسمى بحمر الوحش المعروف بتواجده في المناطق الكثيرة الشجر غير البعيدة عن الموقع بشكل خاص مع صور إنسان وهو يروجه قطعانه بشكل واضح نحو الأسر والصيد باستخدام شرك أو شبكات صيد كبيرة. فيما تبين المشاهد الأخرى دخول حيوان الأونيكر المنطقة المطوقة التي كانت قد أعدت لاصطياده من خلال وجود خطافات وضارات او كلاكيب كبيرة مصنوعة على ما يبدو من الخشب لتثبيت الشبكة. فيما تتضمن المشاهد الأخرى خطوط متموجة والتي يعتقد أنها تمثيل لنسور وخطوط متموجة بنقاط وتسمى هذه المشاهد عند المختصين بـ "العنكبوت

والبيض" الذي يمثل الموضوع أو الفكرة الرئيسة. وقد رسمت هذه المشاهد بوجه عام باستخدام مغرة حمراء اللون مع بعض الألوان كالأسود والأخضر وقد رتبت الرسوم بشكل أفقي تبدو الواحدة فوق الأخرى(١).

إن هذه المشاهد الفنية تمثل تطوراً وتجسيداً حسياً مهماً لما وصل إليه سكان تلك القرية والتي اعتبرناها نموذجاً مميزاً للتطور الفكري في تعبيرهم عن علاقتهم بالبيئة التي يعيشون فيها وخصوصاً الحيوانات التي تعد الأساس لاقتصادهم فيما عبروا. من جانب آخر عن مرحلة فنية متطورة برزت بكل وضوح الجانب الفني وبالأخص الرسم الذي عد الخطوة الأولى والانطلاقة الحقيقية لتطور الفن بوجه عام مما عكس المستوى العقلي والفكري اللذين وصل إليهما سكان القرية خصوصاً والقرى الزراعية الأخرى بوجه عام نتيجة الاستقرار والتطور الاقتصادي والاجتماعي والنمو السكاني المتزايد.

٣. تطور المفاهيم التقنية:

يعد تطور المفاهيم التقنية جانباً مكملاً للتطورات السابقة ويعكس حقيقتها وحجمها ومن ثم تأثيرها على جوانب النمو السكاني وأحد أشكاله. وفي هذا السياق نود أن نشير أيضاً الى نموذج مزيد ومميز لذلك التطور في سعينا لإبرازه كنموذج لما وصل إليه سكان القرى الزراعية من تنامي القدرات العقلية لديهم. وقد تمثل ذلك النموذج في قرية أم الدباغية أيضاً والتي عكس سكانها تطورهم التقني والصناعي وحرصهم على مواجهة الظروف المناخية القاسية وإصرارهم على مواصلة واستمرار حياتهم ونموها وتطورها بشتى الوسائل وذلك من خلال التزود والحصول على الحرارة للتدفئة وذلك من خلال وجود أفران خارجية متصلة بجدران البيوت توصل من خلال منافذ الحرارة من خلال وضع تلك المنافذ في أسس جدران تلك البيوت توصل الحرارة الى مواقد تحتوي على ما يشبه الغطاء فيها. ويعتقد أن هذه الطريقة في الحصول على الحرارة قد استخدمت أثناء فترات الشتاء الذي يتسم ببرودته الشديدة خصوصاً أثناء فترات الليل سيما وان المنطقة كانت تقع في بيئة شبه جرداء وخالية من المصدات الطبيعية كالأشجار مما يجعل حركة الهواء قوية وبمساحات كبيرة(٢).

(1) Mathews, op. cit. , p. 59.

(2) Ibid. , p. 58.

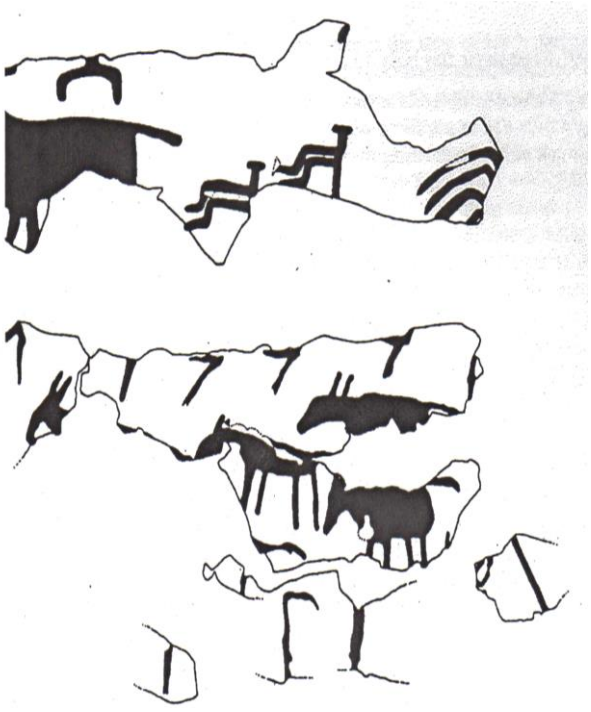

شكل (١)

المصدر:

Matthews, op.

Population Growth Indices During Neolithic in Iraq

Dr. Hussein Y. Al Najm

Abstract

Population growth was one of the most important features of the Neolithic in Iraq. Agricultural Revolution led to several developments according to excavation as in the increase of population and transportations. Therefore, this growth is the outcome of long material and intellectual efforts caveing social change based on obviously on a human interaction with environment. Iraq witnessed extensive progress in all economical and social aspects of life which had a clear impact in population growth later. Food production was one of the basic factors in that era in Iraq and ancient near east as primary evidences proved that. Moreover, agricultural development, animal domestication, pottery, took invention, architecture and exchange concepts and the development social, intellectual and technical concepts represented the most important indices of the Neolithic i. e. in Iraq according to scientific evidence based on the archaeological excavations results of early agricultural inhabited villages.